(٢)

صلاح القلب بالإيمان

تقدَّم ذكر حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «... **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

فالقلب مضغة صغيرة في صدر العبد، عظيمة الخطر، كبيرة الأثر، صلاحه صلاح البدن كلِّه والجوارح جميعها، وفساده فساد البدن كلِّه والجوارح جميعها.

وسُمِّيت في الحديث مضغة إشارة إلى تصغير هذا العضو؛ لأنَّ أصل المضغة قَدْر ما يمضغه الإنسان في فيه؛ فما أعظم خطر هذه المضغة، وما أكبر أثرها!!

فكُلُّ حركة وسكون تقع مِنَ الإنسان، وكُلُّ فعل أو ترك فرعٌ عن مراد هذه المضغة، بل لا يمكن للجوارح أن تتخلَّف عن ذلك.

«فإذا كان القلب صالحًا بما فيه مِنَ الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا؛ لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظَّاهر والعمل بالإيمان المطلق»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

فما أحوج العبد إلى العناية بهذه المضغة؛ إصلاحًا، وتنقية، وتزكية، وتطهيرًا. ومِنَ الدَّعوات المأثورة في هذا الباب ما ورد في حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «... **اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(١).

وإنَّ أهمَّ ما ينبغي مراعاته -في هذا المقام-: معرفة الغاية الَّتِي خُلقت القلوب لأجلها، وأوجدت لتحقيقها؛ ألَا وهي توحيد الله وإخلاص الدِّين له، ومدى حظِّ القلوب منها.

والقلوب في هذا الأمر على قسمين:

الأوَّل: قلب مشغول بالله، عاقل للحقِّ، مفكِّر في العلم، مجتهد في تحقيق هذه الغاية. وهو بهذا يكون قد وضع في موضعه الصَّحيح؛ **وحينئذ يكون له وجهان:**

* وجهٌ مقبلٌ على الحقِّ: علمًا وعملًا، سعيًا وإذعانًا، رغبة وطلبًا، تحقيقًا وتطبيقًا.

* ووجهٌ معرض عَنِ الباطل، منصرف عنه: حذرًا مِنَ الوقوع فيه.

ويقال له: القلب الزَّكِيُّ، والقلب الطَّاهر، والقلب السَّليم؛ لأنَّ هذه الأسماء تدلُّ على سلامة القلب مِنَ الشَّرِّ وبُعْدِه عَنِ الخبث وخلاصه مِنَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الآفات.

الثَّاني: قلبٌ منصرف إلى الباطل، منحرف عَنِ الغاية الَّتِي أُوجِدَ لأجلها وخُلِق لتحقيقها؛ **وله وجهان:**

* وجهٌ مقبلٌ على الباطل، مشغول به.

* ووجهٌ معرض عَنِ الحَقِّ، غير قابل له.

وهما في الحقيقة آفتان: آفة الصُّدود عَنِ الحَقِّ، وآفة الإقبال على الباطل. ولكُلٍّ منهما أضراره الجسيمة ونتائجه الوخيمة.

والباطل الَّذِي ينشغل به القلب عن هذه الغاية نوعان:

أوَّلًا: نوع يشغل القلب عَنِ الحَقِّ، ويزاحم الخير الَّذِي فيه دون أن يعانده ويصادمه: كالأفكار، والهموم، والغموم، والأحزان النَّاشئة عن علائق الدُّنيا وشهوات النَّفس.

ثانيًا: نوع يعاند الحَقَّ الَّذِي في القلب، ويصادمه ويصدُّ عنه، مثل: الآراء والأهواء المردية مِنَ: الكفر، والنِّفاق، والبدع، ونحو ذلك.

فالأوَّل يزاحم القلب.

والثَّاني يصادم ما فيه.

وعلاج الأوَّل: بالعودة بالقلب إلى: التَّوحيد الخالص، والإيمان الصَّحيح الَّذِي خُلِقَ القلب لأجله، وعدم شغله بأمر آخر.

ومِنَ الأحاديث الواردة في ذلك: ما ورد عَنِ ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**». متَّفق عليه(١).

وعن أسماء بنت عُميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ؟ اللهُ، اللهُ رَبِّي، لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». رواه أبو داود، وابن ماجه(٢).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». رواه أبو داود(٣).

وعن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ**». رواه

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن الإسناد».

التِّرمذيُّ[١].

وجميع هذه الكلمات الواردة في هذه الأحاديث؛ كلمات إيمان وتوحيد وإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وبُعد عَنِ الشِّرك كُلِّه كبيره وصغيره، وفي هذا أبين دلالة على أنَّ أعظمَ علاج للكرب وإصلاح للقلب؛ هو تجديدُ الإيمان وترديد كلمة التَّوحيد: (لا إله إلَّا الله)؛ فإنَّه ما زالت عَنِ العبد شدَّةٌ، ولا ارتفع عنه همٌّ وكربٌ بمثل: توحيد الله، وإخلاص الدِّين له، وتحقيق العبادة الَّتِي خُلق العبد لأجلها وأُوجِدَ لتحقيقها؛ فإنَّ القلب عندما يُعمَر بالتَّوحيد والإخلاص، ويُشغل بهذا الأمر العظيم الَّذِي هو أعظم الأمور وأجلُّها على الإطلاق؛ تذهب عنه الكربات، وتزول عنه الشَّدائد والغموم، ويسْعَدُ غاية السَّعادة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوحيد مفزع أعدائه وأوليائه، فأمَّا أعداؤه فيُنَجِّيهم من كرب الدُّنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وأمَّا أولياؤه فيُنَجِّيهم من كربات الدُّنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس، فنجَّاه الله من تلك الظُّلمات، وفزع إليه أتباع الرُّسل فنجوا به ممَّا عُذِّب به المشركون في الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم في الآخرة. ولمَّا فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وإدراك الغرق، لم ينفعه؛ لأنَّ الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سُنَّة الله في عباده.

فما دُفعت شدائد الدُّنيا بمثل التَّوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتَّوحيد، ودعوة ذي النُّون -الَّتِي ما دعا بها مكروب إلَّا فرَّج الله كربه- بالتَّوحيد؛ فلا يُلْقِي في الكُرَب العظام إلَّا الشِّرك، ولا يُنَجِّي منها إلَّا التَّوحيد، فهو مفزَع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. وبالله التَّوفيق»[(١)]. ا.هـ.

وعلاج الثَّاني بالهداية لهذا الدِّين الحنيف، والتَّوفيق للدُّخول فيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمر: ٢٢].

وكُلُّ منحرف عن هذا الدِّين منصرف عَنِ الهدى؛ فقلبه مريض ولا شفاء له إلَّا بالدُّخول في هذا الدِّين، وهو في غاية الظَّمأ والعطش، لا يرويه إلَّا معِين هذا الدِّين الصَّافي، ومنهله العذْب.

قال أحد المهتدين لهذا الدِّين: «إنَّ غير المسلمين على اختلاف نحَلهم ومللهم ظمأى، بل يكادون يهلكون من شِدَّة الظَّمأ؛ وذلك لأنَّهم لم يجدوا ما يروي ظمأهم في عقيدتهم البالية -محرَّفة كانت أو مؤلَّفة من إرث عقولهم-. ويا لله للعجب؛ كُلَّما شربوا منها ازدادوا ظَمَأً، وما كنتُ إلَّا واحدًا من هؤلاء، ووالله ما ارتويت إلَّا من بعد أن نهلت من نهر هذا الدِّين

---

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص٧٢ - ٧٣).

العذب الصَّافي: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:٣٦]».

ومِنَ المعلوم: أنَّ الإنسان قد يُلِمُّ به بعض المُلِمَّات، وقد تصيبه بعض المصائب، وقد يُبتلى ببعض الآلام الَّتي تكدِّره، وتُؤلم قلبَه وتعصر فؤاده، وربَّما جَلَبَتْ له الكثيرَ مِنَ الحُزْن أو الهمِّ أو الغمِّ.

وهذه إذا وصلت إلى قلب؛ أتْعبته، وأرَّقته، وكدَّرت صفوه. ولا يكون وضعُه مع وجودها سويًّا طبيعيًّا.

وعند النَّظر في طريقة علاجها، والسَّعي في إبعادها، وإزالتها عَنِ القلب؛ نجد أنَّ النَّاس يتفاوتون في هذا الباب تفاوتًا عظيمًا، وينحون في العلاج مناحٍ شتَّى، ولكن لا علاج، ولا دواء، ولا شفاء، ولا سلامة من ذلك كلِّه؛ إلَّا بالعودة الصَّادقة إلى الله جَلَّوَعَلَا.

فبالعودة: إلى الله؛ وذِكْره، وتعظيمه، وعمارة القلب بتوحيده، والإيمان به، واللُّجوء الصَّادق إليه، والافتقار إليه، والذُّلِّ بين يديه، والانكسار له سبحانه؛ تذهب ولا يبقى منها شيءٌ.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر تعالى ووعد مَن جَمَع بين الإيمان والعمل الصَّالح؛ بالحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار، وبالجزاء الحسن

في هذه الدَّار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح؛ فإنَّ المؤمنين بالله الإيمان الصَّحيح، المثمر للعمل الصَّالح: المصلح للقلوب، والأخلاق، والدُّنيا، والآخرة. معهم أصول وأسس يتلقَّون فيها جميع ما يَرِدُ عليهم من أسباب السُّرور والابتهاج، وأسباب القلق والهَمِّ والأحزان.

يتلقَّون المحابَّ والمسارَّ؛ بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع. فإذا استعملوها على هذا الوجه؛ أحدث لهم مِنَ الابتهاج بها، والطَّمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشَّاكرين؛ أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرَّات الَّتِي هذه ثمراتها.

ويتلقَّون المكاره والمضارَّ والهَمَّ والغَمَّ؛ بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصَّبر الجميل لما ليس لهم منه بُدٌّ. وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره مِنَ المقاومات النَّافعة، والتَّجارِب والقُوَّة، ومِنَ الصَّبر واحتساب الأجر والثَّواب؛ أمور عظيمة تضمحلُّ معها المكاره، وتحلُّ محلَّها المسارُّ والآمال الطَّيِّبة، والطَّمع في فضل الله وثوابه، كما عبَّر النَّبِيُّ ﷺ عن هذا في الحديث الصَّحيح أنَّه قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ**

خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ». رواه مسلم[١].

فالمؤمن يتضاعف: غُنْمه، وخيره، وثمرات أعماله. في كُلِّ ما يطرقه مِنَ السُّرور والمكاره، بحسب حظِّه مِنَ: الإيمان، والعمل الصَّالح. فيتلقَّى بهما الخير والشَّرَّ: شكرًا على النَّعماء، وصبرًا على الضُّرِّ والبلاء؛ فيحدث له السُّرور والابتهاج، وزوال الهَمِّ والغَمِّ، والقلق، وضيق الصَّدر، وشقاءِ الحياة، وتَتِمُّ له الحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيجتمع للمؤمن عند النِّعم والسَّراء نعمتان:

- نعمة حصول ذلك المحبوب.
- ونعمة التَّوفيق للشُّكر الَّذِي هو أعلى من ذلك.

وبذلك تتمُّ عليه النِّعمة.

ويجتمع له عند الضَّراء ثلاث نعم:

- نعمة تكفير السَّيِّئات.
- ونعمة حصول مرتبة الصَّبر الَّتِي هي أعلى من ذلك.
- ونعمة سهولة الضَّرَّاء عليه.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص١٣ - ١٤).

لأنَّه متى عرف حصول الأجر والثَّواب، والتَّمرُّن على الصَّبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخفَّ عليه حملها»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان ملجأ المؤمنين في كلِّ ما يُلِمُّ بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور الَّتِي لا بُدَّ لكُلِّ أحد منها.

فعند المحابِّ والسُّرور، يلجأون إلى الإيمان فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النِّعم فيما يُحِبُّ المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة يتسَلَّوْن بإيمانهم وحلاوته، ويتَسَلَّوْن بما يترتَّب على ذلك من الثَّواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرُّجوع إلى الحياة الطَّيِّبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنُّون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوَّة وشجاعة ويضمحل الخوف الَّذِي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤]. لقد اضمحلَّ الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوَّة الإيمان

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٧).

وحلاوته، وقوَّة التَّوكُّل على الله، والثِّقة بوعده.

ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يُحْدِث لهم الكبرياء بل يتواضعون، ويعلمون أنَّه من الله، ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الَّذِي أنعم بالسَّبب والمسبِّب الأمن وأسبابه. ويعلمون أنَّه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعزٌّ، أنَّه بحول الله وقوَّته وفضله، لا بحولهم وقوَّتهم.

ويلجأون إلى الإيمان عند الطَّاعة والتَّوفيق للأعمال الصَّالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأنَّ نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرِّزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كلِّ سبب لقبولها، وعدم ردِّها أو نقصها. ويسألون الَّذِي تفضَّل عليهم بالتَّوفيق لها أن يُتِمَّ عليهم نعمته بقبولها، والَّذِي تفضَّل عليهم بحصول أصلها أن يُتَمِّم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التَّوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

فالمؤمنون في جميع تقلُّباتهم وتصرُّفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضادُّه. وذلك من فضل الله عليهم،

ومنِّه»[١]. وبالله وحده التَّوفيق والسَّداد.

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٨ - ١٠٠).